شَرْحُ كِتابِ الرِّقاق

مِن صَحيحِ البُخارِي

أ. أناهيد السميري

اللقاء الثالث

ألقي في ٣ رمضان ١٤٣٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

- الكمال لله عزّ وجلّ، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

ما تم دراسته من أبواب:

٤) بَاب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ

٥) بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] يَعْنِي الشَّيْبَ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو مجلسنا الثالث من مجالس دراسة كتاب الرِّقاق من صحيح البخاري وقد مر معنا أن كلمة الرِّقاق جمع رقة، والمقصود بالكتاب جمع الأدلة التي بها يحصل رقة القلب فإذا حصل رقة القلب حصل حسن العمل.

مررنا فيما مضى على ثلاثة أبواب من هذا الكتاب، وأشرنا إجمالًا إلى طريقة البخاري، حيث أنه كتاب داخله كتب والكتب داخلها أبواب وتحت الأبواب الأحاديث التي جمعها البخاري على المعاني، ولم يكن عناية البخاري فقط بجمع الصحيح إنما أيضًا فقه البخاري في أسماء أبوابه كما هو مشهور عند أهل العلم، بمعنى أن البخاري يأتي إلى اسم الباب ويقرر فيه حقائق ثم يستدل بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحقائق.

◄ **أول باب في كتاب الرِّقاق:** قال: "بَاب الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ" وأتى بالحديثين حديث النبي صلى الله عليه وسلم: " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ" والحديث الثاني لما كان النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق فكان يرى الصحابة وهم يحفرون الخندق فكان يقول: " اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ".

فمن فقه البخاري أن جمع هذان المعنيان معًا أن كثير من الناس مغبونين في الصحة والفراغ وغبنه أنه لم ينتفع بهما للعيش الحقيقي وهو عيش الآخرة.

◄ **الباب الثاني:** "مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ" وهنا أيضًا يظهر للبخاري فقه حيث ابتدأ بآية الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، يعني في عنوان بابه " مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ" وأتى في عنوان الباب بآية سورة الحديد رغم أنه كتاب حديث لكن هذا من فقهه، كأنه يقول أن هذا الحديث الذي أريده يزيدك فهمًا لهذه الآية أو شاهد لهذه الآية.

إلى أن وصلنا إلى ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ يعني هذه الصورة للدنيا أتى عليها حديث النبي صلى الله عليه وسلم حديث سهل ابن سعد لما قال سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيهَا"،"خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيهَا" ما هي؟ لعب ولهو وزينة وتكاثر وتفاخر كما في آية الحديد.

◄ **الباب الثالث:** كان عنوانه كلام النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" وفهمنا هذا المعنى، ثم منه أتى كلام ابن عمر: " إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ" إلى آخر كلامه.

◄ **ثم وصلنا إلى الباب الرابع**، ولم نفصّل فيه..

بَاب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية [آل عمران:١٨٥]، ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ [البقرة:٩٦] بِمُبَاعِدِهِ. وَقَوْلِهِ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر:٣].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَتْ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ.

يتبين أن عنوان الباب: :"بَاب فِي الأَمَلِ وَطُولِهِ" ثم استشهد بآية آل عمران واستشهد بآية البقرة واستشهد بآية الحجر ونقل كلام علي ابن أبي طالب: "ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَة"، ثم أورد الحديث .

أولًا نفهم مطلع الباب، لنفهم مطلع الباب سنقف أمام آية آل عمران:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

هذه الآية في آل عمران فيها ثلاثة أخبار:

مطلعها خبر ثم وسطها خبر ثم خاتمة الآية خبر.

⬅ الخبر في المطلع خبر مسلّم به كل الناس يعرفونه وهو أن كل نفس ذائقة الموت، هذا الخبر معروف معلوم.

⬅ يأتي بعده تقدير الفوز والفلاح، ما تقديره؟ ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ هذا الخبر الثاني الذي هو محط النظر، كأنك تقول كل نفس ذائقة الموت هذا أمر معلوم مسلّم به، والفوز والفلاح ما صورته؟ أتى الخبر ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

⬅ ثم أتت خاتمة الآية تبين لك ما هي الوسيلة من أجل أن تفوز، في وصف الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ يعني مادام أنك ستموت والحياة الدنيا متاع الغرور فما يعيقك عن أن تزحزح عن النار وتدخل الجنة! بمعنى أنه لا يعيقك عن الفوز إلا غرورك بمتاع الدنيا.

وأمس كنا اتفقنا على أمر مهم جدًا وهو أن هذه الحقائق الموجودة في الآية سبب من أسباب تعديل التفكير، فأصْل فساد النفوس من جهة طول الأمل.

كأن السؤال ما مناسبة الآية في الباب؟

الباب في الأمل وطوله ثم أتى في آية آل عمران بالخبر الواضح أنه مهما طال أملك في النهاية كل نفس ذائقة الموت يعني سينتهي الأمر، معنى ذلك لما يصح تفكير الإنسان حتى بمسلّمات مسلّم بها لا يستعملها في التفكير، فكل نفس ذائقة الموت هذا مسلّم كل الناس يعيشونه لكن هذا المسلّم لا يستعمل في التفكير.

واستعماله في التفكير سيخرجنا بنتيجة:

وهي أن الفوز الحقيقي مادام كل نفس ذائقة الموت وستترك وراءها كل فوز ظنت أنها فازته، ستكون النتيجة أن الفوز ليس هنا إنما الفوز في دار الآخرة.

هذه النتيجة في التفكير لو فعّلنا هذا الأمر حقيقة؛ لأن هي حقيقة مسلّم بها أن كل نفس ذائقة الموت وكل يوم نكرر على أنفسنا هذا الأمر لكنه لا يدخل في تفكيرنا بحيث أنه يسبب لنا قرارات صحيحة سليمة إنما كالخبر الذي يمر بدون أن يكون له أثر في القلب ومن ثمّ لا يكون له أثر في قطع الأطماع.

المفروض كل نفس ذائقة الموت كأنها سكين تذبح طول الأمل، كأنها سكين تذبح مشاعر الشوق إلى الدنيا وحبها التي تأتي بمثابة الريح.

وكنا أمس اتفقنا وأكرر هذا الكلام أنه ليس المقصود ترك الأمل تمامًا، لو تركت الأمل تمامًا لا يستطيع الإنسان أن يعيش في الحياة نحن مجبولين على الأمل لكن المقصود تقصيره، وكما في آية الكهف: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ليس فقط "خير ثوابا" بل و"خير أملا".

فالمقصود أن تجعل آمالك حول الباقيات الصالحات، يعني يبقى عندك أمل لكن بحيث كل أمل تتأمله تتأمّل أن يبقى وراءك باقية.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وآخر الآية ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فإذا كل نفس ذائقة الموت وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، فعلينا أن نبحث عن أمر يكون حقيقة سبب لفوزنا مادام أننا سنترك الدنيا وراءنا وأن الدنيا بنفسها متاع الغرور.

إذًا ماذا ستكون النتيجة؟ أن تفكيرنا يجب أن يكون مبني على أن الفوز الحقيقي هو في الآخرة أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وبهذا تكون مجمع آمالنا، يعني الفوز كلمة حية وليست ميتة، أول ما أسمعها أن فلان فاز يصبح تقديري للفوز كما جعله الله أن الفوز الحقيقي هو من زحزح عن النار وأدخل الجنة فيبقى الإنسان يقضي الحياة من أجل أن يتحقق له هذا الفوز الحقيقي.

نأتي إلى آية البقرة ونرى دلالتها على الباب:

﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾: بمباعده كأنه يشرح كلمة بمزحزح يعني بوعد عن النار، وأيضًا آية البقرة لها دلالتها في الباب، هي أتت اللفظة من آية البقرة لبيان معنى زُحزح لكن أيضًا لإشارة مهمة في نفس الآية.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

واضح أن الآية في سياق اليهود والنصارى والذين كفروا وأنهم في نفسهم أماني، ما هي هذه الأماني؟

أن يطول عمرهم، الله يقول لهم لو عمرتم ألف سنة تعميركم في الدنيا ألف سنة أكثر أقل لن يكون نتيجته أن تزحزحون عن العذاب، فمعنى ذلك أن طول الأمل وحب الدنيا إنما يزيد الإنسان هلاكًا، ومهما طالت حياته وكثر تمتعه فطول الحياة لا تزحزحه عن النار، وكثرة التمتع ستكون في النهاية متاع الغرور مهما تمتع الإنسان.

ففي لحظتنا هذه ونحن صيام لا نذكر لحظات الشبع لأنها ذهبت، فكل متعة في الدنيا على نفس الصورة تتمتع بها لحظتها ثم تذهب فلا يبقى لها أثر فهي متاع الغرور.

وكما اتفقنا أمس أن الشيطان وهو الغَرور غَرّ الناس فوصلوا أنهم اشتروا بأموالهم وبجهدهم وبأوقاتهم بضاعة خاسرة فغُروا، غَرهم الشيطان كأن الصورة واحد يسوم بضاعة في السوق فكان الذي يبيعه غاشًا فغَره.

فهكذا ابن آدم والشيطان، الدنيا سوق للآخرة، تبيع فيه نفسك لله وتشتري الأعمال الصالحة، يقطع طريقك في الوسط وأنت في سوق الدنيا الشيطان فيغُرك فتغتر فتشتري منه بضاعة كاسدة، فهذه صورة الدنيا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

نأتي إلى آية الحجر ونرى دلالتها على الباب:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

آية الحجر تامة الوضوح؛ الخطاب عن من لا يتأمل في الآخرة حال، هذا الوصف لا يكون إلا للكفار، لأن المؤمنين أول علامات إيمانهم الإيمان بالله واليوم الآخر، ونحن نجد في كثير من النصوص اقتران الإيمان بالله باليوم الآخر، فمن كان مصدقًا تصديقًا يقينًا بالله عز وجل وبلقاء الله، لابد أن آماله تكون في ذاك اللقاء، ضعفت عدمت لكنه في النهاية عنده آمال في لقاء الله، الذين كفروا وأشركوا قطعوا آمالهم عن الآخرة.

فالله يقول للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ذَرْهُمْ﴾ أي اتركهم، على وجه التهديد، ذرهم ماذا يفعلوا في الدنيا؟

﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ يأكلوا ويتمتعوا، يعني ما هي الدنيا إلا أن يأكلوا ويتمتعوا.

ويأتي الأمر الثالث: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ وهم باقين لاهيهم الأمل أنهم سيفعلون غدًا وسيفعلون ولا يظنون أن شيئًا يقطع عليهم، فالالتهاء بالأمل من صفات من لا يؤمن بالآخرة أو ضعف إيمانه بالآخرة؛ لأن الله عز وجل يقول في الحجر ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ فالأمل لا يلهي إلا مثل هؤلاء.

لكن أهل الإيمان فيهم ثلاثة صفات:

◄ الصفة الأولى أنهم يعرفون يقينًا أنهم سيلحقون بربهم فيحاسبهم ويجازيهم (الإيمان باليوم الآخرة)، إذًا الإيمان باليوم الآخر هذه قاعدة المؤمنين والدافع للعمل الصالح والدافع لبقاء الأمل عند الله عز وجل.

◄ الصفة الثانية أن المؤمن يقدر ما هو الفوز الحقيقي فيعرف أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما أعظمها من صورة تبقى أمامك وتعرف ما هو الفوز الحقيقي ولا يخدعك الشيطان لا من الجن ولا من الإنس في أنواع الفوز الذين يتمتعوا بها الناس في الدنيا، لأن الناس يستعملون كلمة الفوز ويمتعون أنفسهم بالفوز ويتنافسون على الفوز وأنتم تعرفون أن هذا الفوز كما وصف الله في سورة الحديد لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر" فالفوز الحقيقي ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

◄ الصفة الثالثة المهمة جدًا التي ناقشناها في التفسير أن المؤمن يصاحب الدنيا ببدنه ويفارقها بقلبه، أمس لما كنا نتناقش في التفسير في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ أول ما ابتدأ الشيخ السعدي تفسير هذه الآية قال الناس في هذا قسمين:

⬅ قسم جعلوها هي المقصد كما في آية الحجر ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾.

⬅ وقسم عرفوها وجعلوها مجرد وسيلة توصلهم إلى ربهم وأهم شيء فارقوها بقلوبهم وإن صاحبوها بأبدانهم.

يوضع لهم طعام فيأكلون لكن ليس طول آمالهم أن يأكلون، فالآمال التي في قلب المؤمن أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ويفعل كل الأفعال من أجل أن يزحزح، والدنيا لا يتمتع بها؟ اتفقنا أنه يتمتع بها لكن تمتعه بها صورته أنه يصاحبها ببدنه وليس بقلبه.

وقد اتفقنا على مطلع سورة هود وكيف أن الله عز وجل قال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فلا بأس أن يتمتع الإنسان لكن تمتعه ليس بمعنى أن يكون قلبه معلق به.

إذن مردود هذا الكلام هو تغيير في قلوبنا، والتغيير في قلوبنا لابد أن يسري على جوارحنا، وإذا سرى على جوارحنا ليس معناه ترك الدنيا إنما معناه ترك تعلق القلب بالدنيا، فرق كبير بين أن أقول ترك تعلق قلب بالدنيا وبين ترك الدنيا.

الله عز وجل في سورة الحجر يقول: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ يعني كل الحياة عندهم ماذا سنأكل غدًا؟ أين سنقضي وقتنا؟ كيف سنتمتع في كذا؟ مشغولة قلوبهم، لكن المؤمن مشغول قلبه بالفوز الحقيقي، فمعنى ذلك يصاحب الدنيا ببدنه وينخلع عنها بقلبه.

يأتي كلام علي ابن أبي طالب يزيد الأمر بيانًا:

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، -يعني تعطيك ظهرها- وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، -يعني آتية عليك- وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ.

يعني للدنيا أبناء وللآخرة أبناء، وهنا تعبير بالأبناء المقصود أنهم غاية في الاهتمام وغاية في الرعاية، يعني أبناء الدنيا غاية في الاهتمام بالدنيا والرعاية لها، وأبناء الآخرة غاية في الاهتمام بالآخرة والرعاية لها.

نخرج بفوائد:

أولًا الدنيا ترتحل والآخرة ترتحل لكن الدنيا ترتحل وهي تعطيك ظهرها وهي الأيام والليال التي تنقضي وتذهب وراءك، لما تذهب الأيام والليالي وراءك وأنت مسافر كما اتفقنا أمس: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" ستقبل على الآخرة، يعني الدنيا ارتحلت مدبرة والآخرة ارتحلت مدبرة فإذا كنت تعتبر نفسك واقف والزمن هو الذي يسير عليك، فاعلم أن زمان الدنيا قد ارتحل وراءك وزمان الآخرة قد استقبلك.

الفائدة الثانية: فإذا كان الأمر حقيقة وهو حقيقة يأتي الأمر الثاني أن كل واحد من الدنيا والآخرة لها بنون، وبنون هنا تعبيرًا عن العناية والاهتمام (الذين يخدمونها، فإما تكون من المعتني بما يرتحل ويذهب، وإما تكون المعتني بما هو مقبل، وكل الناس تفكيرهم في الدنيا ويقال لك لا تكن رهين الواقع إنما فكر في المستقبل ماذا ستفعل، فسبحان الله! يفكر الناس

في مستقبل ما هو إلا متاع الغرور ويتركون المستقبل الحقيقي الذي صاحبه لما يندم يقول يا ليتني قدمت لحياتي نعوذ بالله من الندم والخذلان.

من قوله: "فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلا عَمَلٌ".

الفائدة الثالثة: تقرير صورة الدنيا والآخرة من قوة الإيمان باليوم الآخر.

اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل، تعمل تعمل ويبقى فقط إيمانك بالغيب أن عملك هذا وراءه الجزاء، قوة الإيمان باليوم الآخر تجعلك تقول أصلي وأنا جامع قلبي سأجده يوم القيامة في موازين حسناتي، أتصدق سيكون موازين لي يوم القيامة وسيكفر به سيئاتي، فاليوم عمل لكن أنت لا ترى أثر العمل تمامًا وإن كنا نراه انشراحًا في الصدر ونراه سعة وبركة في أعمارنا وأوقاتنا نعم لكن هذا لا شيء في مقابل ما سيكون.

فلو تمثلت تمامًا أن هنا عمل لكن لا ترى آثاره من جهة الحساب ماذا فعلت صليت ما صليت، قمت ما قمت، جمعت قلبك ما جمعت، ليس هناك أحد يحاسبك حسابًا دقيقًا واضحًا على أفعالك، هل جمعت قلبك وقت ما أذّن المؤذن، هل عزمت على أن تقوم.. لا أحد يحاسبك هنا على أعمال قلبك لكن في الآخرة كل هذا بالتفصيل!

فلا تجعل تأخير الحساب مما يغرك، لا تجعل تأخير الحساب يطول أملك، فاليوم عمل ولا حساب، لا يأتي أحد يحاسبك عن ما قام في قلبك ولماذا ظننت في هذا ولماذا ظننت في هذا، ولماذا فكرت في هذا ولماذا طمعت في كذا، ليس هناك هذا الحساب، لكن غدًا حساب ولا عمل.

فلا يغرك طول الأمل ولا تجعل يومك اليوم أنه ليس هناك حساب يجعل نسيانك أن غدًا هناك حساب! لأن اختبار الناس في الدنيا أنهم هنا لا يحاسبون على ما في قلوبهم ولا يحاسبون على أعمالهم، وكثير من الأشياء نفعلها ولا نجد لها أثرا! فهذا غرور إذا ظن الإنسان أنه يعمل ويعمل ولا يجد حسابًا فيبرد قلبه تجاه الأعمال، هذا من غرور الشيطان لكن من الإيمان أن هذه الحياة كلها فرصتك تعمل وغدًا ستحاسب على ما عملت.

ولذلك كما مر معنا أول يوم من كلام النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلاَّ نَدِمَ)) قَالُوا: وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لاَ يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ لاَ يَكُونَ نَزَعَ))[1] والسبب لماذا لا يحسن المحسن أكثر؟ لأنه ليس هناك أحد يحاسبه، ونحن دائمًا معتمدين على حمسوني للعمل، شجعوني للعمل، رغبوني في العمل، نريد أحد من الدنيا يرغبنا وكل كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكل الدرجات التي تسمعها على العاملين وكل آيات القرآن التي تقول لك "والله يحب المحسنين"، "والله يحب المتصدقين" كل هذه لا تفعل فعلها في قلوبنا! دليل على طول الأمل وضعف اليقين.

إذا قوي اليقين وسمعت الله يقول أنه: "يحب المتطهرين"، "يحب المحسنين" مباشرة في قلبك ما نسميه دافعية، ولا تنتظر الدافعية من الناس لأن الدافعية من الناس في أحيانًا كثيرة تكون فيها غرور، فتفعل لمجرد وجود أحد يدفعك وإذا فقدت هذا الأحد فقدت العمل.

[1] رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَيَحْيَى بْنُ عُبَيْدِ اللهِ قَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ شُعْبَةُ، وَهُوَ: يَحْيَى بْنُ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مَوْهَبٍ مَدَنِيٌّ.

فالمقصود أن زيادة إيماننا ويقيننا بكلام الله وبكلام نبينا صلى الله عليه وسلم وبلقاء الله هذا يدفعنا أن نسير على الصراط المستقيم.

بقي أن نعيد على أنفسنا دائمًا اقرأ القرآن واجعل القرآن ربيع قلبك، أنت اجعله ربيع قلبك، يعني اطلب من الله أن يجعله ربيع قلبك وأحرث قلبك وازرع فيه المعاني الموجودة في القرآن.

لما تقول يارب "اجعل القرآن ربيع قلوبنا" معناه أنك تطلب أن يكون قلبك أرض ومعاني القرآن مزروعة فيه فتثمر عملًا صالحًا وشوقًا لله عز وجل وشوقًا للآخرة، فالمفروض تحرث أرضك وتزرع معاني القرآن في قلبك، وهذا لا يكون إلا بقوة جمع القلب أثناء قراءة القرآن وتكرار معانيه على النفس وبذل الجهد أن نجعل القرآن يخاطبنا.

لما نقرأ آيات القرآن نفهم أن هذا الخطاب الذي في القرآن إنما نخاطب به.

نأتي الآن للحديث:

حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْلِ أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ مُنْذِرٍ عَنْ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: ((هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا)).

النبي صلى الله عليه وسلم خط خطًا مربعًا يعني رسم لهم خطًا مربعًا والخط المربع هذا حياة الإنسان والإنسان في داخله، ثم خطّ خطًا خارج المربع وخط خطوطًا صغيرة على جانبي الخط الطويل، فالخط الطويل الذي هو خارج المربع هو الأمل، حد المربع هو حد حياة الإنسان وأمله خارج عنه، ثم خط خططًا صغيرة على خط حياة الإنسان وقال الأعراض، يعني الأشياء التي يتعرض لها الإنسان من أحداث من خير وشر في أصلها لكن لما نكمل الحديث نفهم أن المقصود بها أنه كل مرة يصاب بمصاب قد يكون موته فيه لكن يسلم من هذا "فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا". فالمقصود أنه يتعرض للأحداث يتعرض ويتعرض إلى أن يذهب في واحد من هذه الأحداث أو يسلم من كل هذه الأحداث فتنقضي حياته بنهاية الأجل، فإما أحداثًا وإما أجل يأتي على الإنسان.

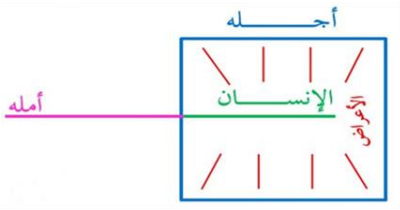

المقصود أن المربع سينقطع به عمر الإنسان والأمل لازال خارجًا عن عمره.

سنقرأ الشرح[٢]:

مَثَّل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعود أمل ابن آدم وأجله وإعراض الدنيا التي لا تفارقه بالخطوط، فجعل أجله الخط المحيط، وجعل أمله وإعراضه خارجة من ذلك الخط، ومعلوم في العقول أن ذلك الخط المحيط به الذي هو أجله؛ أقرب إليه من الخطوط الخارجة منه، ألا ترى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أنس: "فبينا هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب". يريد أجله.

وفى هذا تنبيه من النبي صلى الله عليه وسلم لأمته على تقصير الأمل،

وهذا هو موضوعنا وهذا اسم الباب: " بَاب فِي الأَمَلِ وَطُولِهِ"

واستشعار الأجل خوف بغتة الأجل، ومن غيب عنه أجله فهو حريّ بتوقعه وانتظاره خشية هجومه عليه في حال غرة وغفلة، ونعوذ بالله من ذلك،

يأتي الآن طلب المؤمن:

فَلْيُرِضْ المؤمن نفسه على استشعار ما نُبه عليه،

أي ريّض نفسك، نريّض قلوبنا يعني نشعر بما نبّهنا عليه، معنى ذلك أنك لا تنتظر من نفسك وحدها أن تتذكر لابد أن نريّض نحن أنفسنا على ذكرى الدار الآخرة.

وهنا دائمًا ننبه على تنبيه: أن الشيطان يجعل ذكرى الدار الآخرة والموت بمثابة الوسواس المخيف الذي يمنع الإنسان ويحيله عن العمل، والصحيح ما أن تجد نفسك قد شغلت عن العمل تعرف أن هذه الذكرى للموت إنما هي ذكرى شيطانية، يذكرك بحيث تخاف فتشلّ عن العمل.

ماذا أفعل من أجل أن أتذكر تذكرًا يجعل الموت بالنسبة لي سبب لزيادة الأعمال؟

لا تنسوا حديث عائشة رضي الله عنها لما أخبرت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ"، فنحن نتفكر في الموت على أنه لقاء بالملك العظيم، أنه لقاء نحب أن يكون، كأننا سنغفل كلمة الموت هذه المشاعر لما نكون من النوع الذي خوفه الشيطان وأرهبه ونحولها إلى لقاء بالملك فيكون حالنا أن نجهز أنفسنا ونتزين لهذا اللقاء.

لا زينة للمرء في لقاء الملك العظيم أعظم من زينة التوبة وطلب العفو والاستغفار وإظهار الندم على التقصير في حقه سبحانه وتعالى، وإظهار الندم على وقوع الذنوب والاستحياء من ربنا أننا أنعم علينا وما انتفعنا بما أنعم علينا.

فهذا أعظم باب يدخل فيه الناس إلى ربهم وما أعظمه من باب وما أحسنه لمن أحسن فيه، فمهما كان عند العبد من أعمال صالحة فالذي ينفع العبد على الحقيقة أن يظهر لربه ندمه واستحياؤه وندمه ووجله واستغفاره على ما أذنب من ذنوب.

[٢] شرح صحيح البخاري لابن بطال.

ومما يدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما علم عائشة رضي الله عنها في ليلة القدر ماذا تقول علمها أن تطلب من الله العفو، فهذا من أعظم الأبواب التي يدخل بها على الله أن تظهر تقصيرك وندمك ولا تظهر ثقتك في أعمال قد عملتها، إنما نحن دائمًا في حياتين بين أمرين:

١. بين طلب قبول ما عملنا

٢. والتوبة عن تقصيرنا فيما عملنا وفي ذنوبنا التي أذنبناها.

يعني نتوب عن التقصير ونتوب عن الذنوب، ومن جهة الأعمال نطلب الله عز وجل أن نقبل أعمالنا، وقد تناقشنا في الذين اتقوا وكيف أن لهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار وكان من صفاتهم ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

إذن اتفقنا أننا نروض أنفسنا كأنها رياضة وترويضها معناه تفكيرها بالدار الآخرة وبما سيكون وكيف أن الناس في نعيم، فهنا الترويض لا يأتي إلا لما تتعلم عن الدار الآخرة، وهنا سنجد أيضًا ثغرة في نفوسنا وهي الجهل بما سيكون في الدار الآخرة.

الجهل بموقف الناس وكيف حالهم في قبورهم انقسامهم، بل الجهل من عند قبض الملائكة لأرواح الناس إلى لقاء الله عز وجل إلى استقرار أهل الجنة -نسأل الله من فضله- في الجنة، والعكس لأهل النار -نعوذ بالله من الخذلان- كل هذا المفروض يكون كالمنظومة التامة الظهور بحيث أنك تريض نفسك على تذكرها وتستعد لتفاصيلها وتطلب من الله في هذا الموقف أن يعاملك كذا وفي هذا الموقف يعاملك كذا، وتعمل الأعمال التي تسبب أنك في هذا الموقف أن يكون معك نور، وفي هذا الموقف أن تمر سريعًا، وفي هذا الموقف تكون ممن عفي عنه، لكن هذا لما ما يبقى في الذهن حقائق الدار الآخرة.

إذن رياضة هذا الأمر تكون بدراسة الأخبار التي وردت عن اليوم الآخر سواء في الكتاب أو السنة ومعرفتها ومعرفة ما المنجي في كل موقف، يقضي وقته في الدنيا بعمل الأعمال التي تنجيه في كل موقف.

فإن ابن آدم مجبول على الأمل كما قال صلى الله عليه وسلم في الباب بعد هذا: "لا يزال قلب الكبير شابًا في حب الدنيا وطول الأمل".

وقال الطبري: في قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣]، يعني ذرِ المشركين يا محمد يأكلوا في هذه الدنيا ويتمتعوا من شهواتها ولذاتها إلى أجلهم الذى أجلت لهم، ويلههم الأمل عن الأخذ بطاعة الله فيها، وتزودهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم.

المطلوب أن المؤمن يأخذ في الدنيا بطاعة الله ويتزود في ميعاده بما يقربه لربه لكن هؤلاء الله عز وجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتركهم، يتركهم يأكلوا ويتمتعوا بمعني لن يستفيدوا من دنياهم في القرب من ربهم.

فسوف يعلمون غدًا إذا وردوا عليه، وقد هلكوا بكفرهم بالله حين يعاينون عذاب الله أنهم كانوا في تمتعهم بلذات الدنيا في خسار وتبابٍ.

والمقصود أن هذا هو الإيمان بالغيب، أنك تكون هنا ترى الناس يتلذذون ويتمتعون وأنت تمنع نفسك بسبب أنك تعرف أن هناك يوم سيتحاسب الناس، فالفرق دائمًا بين الناس على قدر قوة الإيمان بالغيب، هذا الفرق الحقيقي بين الناس، حتى المؤمنين أنفسهم الفرق بينهم إنما هو على حسب قوة إيمانهم بالغيب.

ونحن لما نرى في الواقع نرى أن من أكثر الأشياء قليلة الطرح وقليلة النقاش لا تجد لها قوتها حتى في حلقات العلم مسألة الإيمان، مسألة الإيمان ضعيفة في الطرح، ضعيفة في النقاش، ضعيفة في توصية بعض الناس بعضهم، مع أن الله عز وجل قال: ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ*وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وأول الحق التواصي بالإيمان، أن يوصي بعضنا بعضًا بالإيمان، وأن تحصل مواقف وأحداث نفسرها على أساس ما معنا من إيمان فنطلب عموم الإيمان التي تزيدنا إيمان.

نرى في رمضان الناس يتحمسون ويعملون الأعمال الصالحة ثم يأتي بعضهم فيتركون إلى العام القادم، ما هذا إلا لأن الأجواء دفعتهم للقيام بالعمل لكن أين الدافعية الحقيقية من الإيمان بالغيب؟ أكيد تجدها لكنها ضعيفة عند هذا، معدومة عند هذا، قوية عند هذا، فالفارق الشاسع هذا بين الناس في الإيمان بالغيب هو سبب أن الأعمال نفسها لا تزيد الإيمان، وأصلًا متوقع من الأعمال أن تزيدنا إيمانًا، ضعف الإيمان بالغيب هو سبب ضعف الثبات في الأعمال.

الباب الخامس.

بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] يَعْنِي الشَّيْبَ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً)).

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ)).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ)).

هذه الأحاديث كلها ستدلنا على أمر واحد؛ وهو أن الله عز وجل ابتلى الناس بحب الدنيا، وهذا البلاء بحب الدنيا لابد له من مدافعة ومقاطعة وبذل الجهد من أجل أن يصل الإنسان إلى الطريق السوي.

لا تتصور من نفسك أنك لما تكبر في السن سينقطع عنك هذا الحب ((يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ)) وفي الحديث الذي قبله: ((لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ))

فكأن المقصود لا تركن إلى مجرد أنك تكبر في العمر والمفروض أنك تزهد! ابتلينا في نفوسنا أننا نكبر وهذا يكبر معنا فليس هناك إلا تأديب النفس وليس هناك إلا ترييضها وليس هناك إلا قطع هذه الآمال الموجودة في النفس.

بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

السياق واضح أن هذه لحظات الندم وتمني الذين كفروا، كفروا يعني ستروا هذه الحقائق الغيبية[٣].

في آية فاطر الله عز وجل يخبر عن ندامتهم، لما يذوقون النار سيندمون على عمرهم الذي عمروه باللهو وعمروه باللذات وطول الأمل، مع أن هذا العمر يجب أن يعمر حقيقة بالأعمال الصالحة التي توصلهم إلى الله عز وجل وهم سالمين.

ولذلك الله عز وجل يرد على تمنيهم على أن يعودوا للدنيا ويعملوا يقول لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ يعني قد كان لكم التعمير وبقيتم في الدنيا وطالت أعماركم: ﴿ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ إذًا اجتمع لهم أمرين:

١. طول العمر
٢. وجود النذير.

يعني كلما طالت أعمارنا كلما زاد الشاهد علينا أنه كان الواجب نمتثل أمر الله عز وجل.

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ قيل من النذر التي تأتي الإنسان الشيب، يعني ظهر الشيب في رؤوسكم ومع ذلك ما استجبتم ولا انتفعتم منه ولا رأيتوه قد أنذركم بلقاء ربكم أو بالموت.

وقيل: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني أتتكم الرسل التي تبين لكم الحقائق.

نبدأ بالحديث الأول: ((أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً)) ما المقصود بالحديث؟ نقرأ الشرح:

روى عن علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] قالوا: يعني: ستين سنةً.

يعني التعمير المقصود به ستين سنة ولذلك عقد البخاري بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ وأتى بهذه الآية.

وروى عن ابن عباس أيضًا أربعون سنة، وعن الحسن البصري ومسروق مثله،

يعني أهل العلم بين أربعين وبين ستين، يعني من التعمير الأربعين أيضًا والستين كما دل الحديث.

---

[٣] لما تسمع كفار اعلم أن المنافقين نفاقًا أكبرا أيضًا في حكم الكفار ويسموا في القرآن كفارا، ممكن أن يكون الإنسان ممن أظهر الإيمان ولم يظهر في قلبه قوة الإيمان إنما بقي الإيمان ضعيف ضعيف إلى أن ذهب الإيمان! فهو في دين الله في حكم الكفار، وهذا شيء من المهم جدًا أن نفهمه لأنه من الأخطاء التي تحصل أنه ما أن أسمع "الذين كفروا " إلا أستبعده! نحن نرى صفاتهم ونخشى على أنفسنا من صفاتهم.

وقول من قال: أربعون سنة. له وجه صحيح أيضًا، والحجة له قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] الآية فذكر تعالى أن من بلغ الأربعين، فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرهما.

يعني المتوقع أنه في سن الأربعين يحصل النضج ولا يحصل الهرب منه، لأن هذا ما يحصل رجالًا ونساءًا لم يبقى أحد إلا يريد أن يخفي هذا العمر، ولا يعرف أنه لما بلغ هذا قد أعذر الله إليه وأن من هذا العمر المفروض أنه يكون قد عرف الحياة وحقيقتها فيربي نفسه ويؤدبها.

قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم، ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالعبادة حتى يأتيهم الموت.

فبلوغ الأربعين نقل لابن آدم من حالة إلى حالة أرفع منها في الاستبصار والإعذار إليه.

يعني كلام مالك رحمه الله معناه أنه أدرك الناس في المدينة يقضوا يخالطوا الناس يطلبوا الدنيا والعلم معًا إلى أن يبلغوا أربعين فيتركون الدنيا ويتفرغوا للعلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم : "أعذر الله إلى امرئ أخرّ أجله حتى بلغ ستين سنة". أي أعذر إليه غاية الإعذار، الذي لا إعذار بعده، لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله تعالى وترقب المنية ولقاء الله تعالى فهذا إعذار بعد إعذار في عمر ابن آدم، لطفًا من الله لعباده حين نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، وأعذر إليهم مرة بعد أخرى، ولم يعاقبهم إلا بعد الحجج اللائحة المبكتة لهم،

اكلما زاد العمر كلما زادت التجربة وزاد علم الإنسان وتصوره للحقائق، المتصور أن التجارب تتراكم في نفس الإنسان من جهة طعم الدنيا ومن جهة حقيقتها ومن جهة كونها متاع ومن جهة كون أن عمل القلب يؤثر على الحياة، كل الحقائق الإيمانية التي تتصل بالإنسان ويستطيع أن يراها في الدنيا تزيد بالمعرفة والتجربة، والتجربة تأتي بالعمر، فكلما زاد عمره زادت تجربته فزاد يقينًا بالحقائق التي أخبر بها الله عز وجل.

مثال: من الحقائق التي أخبر الله عز وجل بها في كتابه أن الله عز وجل يمكر بالماكرين، إذا مكر الإنسان مكر الله به وأن مكر الإنسان يعود عليه، فالإنسان في بداية حياته يكون مغرور في شبابه يظن أنه لو مكر بأحد يصل إلى مراده، والمكر معروف أن يصل الإنسان إلى مراده بطريقة لا يشعر بها أحد، فيمكر في بداية حياته ومع الأيام والتجارب يفهم أن كل مكر يمكره يرد عليه فيمكر الله به، المفروض أنه حصل الإعذار الآن، يعني تصور هذه التجربة جربتها وأنت عمرك ثلاثين عام ورد عليك مكرك وأنت عمرك واحد وثلاثين عام، وجربت مرة ثانية في اثنين وثلاثين ورد عليك مكرك في ثلاثة وثلاثين عام فتكررت التجربة واتضح لك الأمر ما تمكر إلا يمكر الله بك مثلًا، فإذًا يحصل الإعذار هذه الحقيقة قد تغيرت تمامًا لك، المفروض أنك تكون في غاية من الإيمان بها.

نأتي من الجهة الأخرى تحسنوا يحسن الله إليكم ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ هذه قاعدة، تعيش الحياة تحسن في شيء فترى أن مردود الإحسان مباشرة كان لك، افترض أنك جربتها وأنت عمرك خمسة وعشرون عام هذه المرة أحسنت جاء مردود الإحسان عليك، جاء الشهر القادم أحسنت جاء مردود الإحسان عليك وهكذا وهكذا المفروض تصبح هذه مقطوعة يقينية أنك إذا أحسنت أنت تحسن لنفسك.

فإذًا كل حقائق الدين لما الإنسان يطول عمره ويكون عنده علم ووعي النتيجة أنه تتبين له حقائق الدين يقينية.

لذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً" المقصود أنه نقله من حالة الجهل إلى حالة العلم، وحالة العلم أتته من موردين:

١. مورد أنه سمع ما في القرآن وما في السنة فتعلم

٢. ومورد آخر أنه هو بنفسه وصل لدرجة اليقين مع التجارب المتكررة

نضرب مثال من جهة التعلق: الشباب يتعلقون ببعضهم، يتعلقون بالآمال، يتعلقون أن يأتي زوج، تتعلق وتتعلق، لما ينضج الإنسان ومر بالتعلق ورأى حقائقه وعرف أنه لا شيء من هذا كله يطيب ويبقى وإنما هو متاع يذوقه لحظة ثم يذهب عنه لما يكبر ويصبح عمره أربعين عام متوقع منه أنه لا يزيد في تعلقاته وأن كل شيء يمر كمر السحاب، مهما كانت النفس مشتاقة إليه مهما تلذذت لن تستطيع أن تستلذ التلذذ التام به.

إذن أعذره يعني قد قامت عليه الحجة نقله من حالة الجهل إلى حالة العلم بكثرة موارد العلم من جهة، بكثرة موارد العلم من جهة وبكثرة التجربة من جهة أخرى.

قال: وإن كانوا قد فطرهم الله تعالى على حبّ الدنيا وطول الأمل، فلم يتركهم مهملين دون إعذار لهم وتنبيه،

يعني صحيح في قلوبنا حب الدنيا لكن حب الدنيا بلاء يقابله سلاح أعطانا الله إياه وهذا السلاح نجاهد به حبنا للدنيا، هذا السلاح دائر حول العلم وحول العزم؛ لأنه ليس هناك إلا هذان الأمران يجتمعان فيصبحان سلاح لك:

قلبك فيه حب الدنيا هذه من الأشياء الطبيعية ← فمن الجهة الأخرى العلم والعزم يقطعان حب الدنيا.

تتعلق تزداد يقينًا باليوم الآخر وبلقاء الله وبحقيقة الدنيا، وتعزم يعني تأخذ قرار ولا تكن ضعيفًا، ولذلك كنا نقول أن من صفات المتقين الذين أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار أنهم صادقين والصدق معناه القوة والقوة معناها أن هؤلاء لهم عزم يفعلوا ما يجب عليهم.

فلم يتركهم مهملين دون إعذار لهم وتنبيه، وأكبر الإعذار إلى بنى آدم بعثه الرسل إليهم، واختلف السلف في تأويل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] فروى عن علي ابن أبي طالب أنه محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو قول ابن زيد وجماعة، وعن ابن عباس أنه الشيب.

وجاءكم النذير:

- إما النبي صلى الله عليه وسلم.
- وإما الشيب.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ردًا على ما هم فيه من تحسر وأنهم يريدون أن يعودون إلى الدنيا، الله عز وجل رد عليهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ فالسؤال من هو النذير؟ فالجواب أما النذير هو النبي صلى الله عليه وسلم أو النذير الشيب.